بنية الخطاب العلمي في كتاب "سيبويه" مخارج الحروف عيّنة

الأستاذ الدكتور : بشير إبرير
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة عنابة (الجزائر)

ملخص:

الخطاب العلمي عند سيبويه في كتابه "الكتاب"، وصفي و دقيق يشكل من جهة بنية تقنية حيث اعتنى بالمصطلحات و المفاهيم، ومن جهة أخرى بنية لسانية جيدة المسك، مما يجعله (الخطاب) نموذجا لكل خطاب علمي حديث .

Résumé:

Cet article a pour objet le discours scientifique de SIBAUIH dans son œuvre « AL-KITAB » Un discours descriptif et stricte formant d'un cote une structure technique ou il avait organise soigneusement la terminologie et les concepts et d'un autre une structure linguistique bien construite ce qui donne le modèle pour tout discours scientifique moderne

.

أولا: تقديم:

الخطاب العلمي حدث لغوي ومنتوج معرفي متخصص يشمل ترسانة من المفاهيم العلمية الخاصة بميدان معرفي ما لها، والمصطلحات اللغوية الواصفة الشارحة لتلك المفاهيم الضابطة لها المحددة الدالة عليها.

وتتمثل وظيفة الخطاب العلمي في كونه يصف وينقل محتوى معرفيا محددا دلاليا مبنيا بناء لغويا صارما يتفق عليه مجتمع الباحثين[(1)]. فهو عبارة عن بنية لسانية وتقنية وتنظيمية تفسيرية تجمع بين قاعدة مفاهيم المصطلحات التي تدل بوضوح على مجال البحث وبين الدلالة والبراهين التي يتم تقديمها في إطار الظواهر المدروسة وما يتعلق بها من تفاسير وشروح[(2)].

وبهذا يختلف الخطاب العلمي عن الخطاب الأدبي من حيث اللغة ونوعية المتلقي والقراءة.

وإذ نقدم هذا النص لــ"سيبويه" في مخارج الحروف من الباب المسمى "الإدغام" فلنبحث عن جملة الخصوصيات البنيوية والمعرفية التي تجعل منه خطابا أو نصا علميا.

ولكن قبل ذلك نشير إلى أن لنا هدفا تربويا يشغلنا كلما قرأنا في ميدان علم الأصوات فآثرنا تقديم هذا النص للعاملين الآتيين:

1. أن نضع أمام طلبة الجامعة في أقسام اللغة العربية وآدابها مخزونا تراثيا استعماليا يخص الأصوات كما يبرز ويتجلى في مصادره التراثية ومضانه الأصلية وسياقاته الاستعمالية الحقيقية. وتمكينهم من فهمه ومن ثمة التركيز على مقارنته بالمنجز الحداثي في الدرس الصوتي كما يتجلى في نصوصه المعاصرة.

2. أن نساهم في حل إشكالية المصطلح سواء أتعلّق الأمر بالبحث أم بالتدريس؛ إذ توجد فجوة حقيقية في توليد المصطلح واستعماله، الأمر الذي يؤدي في أحيان كثيرة إلى اختلاف وجهات النظر وتعددها في المسألة الواحدة، بل ويؤثر على نتائج البحث والمردود التربوي، وبخاصة عند الطلبة، ومن بين الميادين التي تعاني إشكالية المصطلح ميدان البحث الصوتي فنلاحظ ازدحاما اصطلاحيا إلى درجة التخمة واختلافا واضحا في توليد المصطلح الصوتي واستعماله إلى الحد الذي يصل إلى استغلاق الخطاب وصعوبة فهمه، وإلى غربة المصطلح الصوتي العربي الأصيل وتغريبه عن سياقات استعماله، واستثماره في خطاباتنا، وبخاصة أن ميدان الأصوات ميدان علمي دقيق صار يحتاج في إدراكه إلى عمق المعرفة وإتقان اللغة.

ثانيا:تجليات البنية العلمية في الكتاب:

تتجلى بنية الخطاب العلمي في كتاب "سيبويه" في جملة من المسائل العامة المهمة منها.

إن الكتاب يعد كتابا جامعا لعلوم العربية فيه قيمة علمية عظيمة وفائدة كبيرة للدراسات اللغوية، فهو كما قال الدكتور "حسن عون" :"مرجعها الأساسي ماضيا وحاضرا، إننا نظلم الكتاب حينما نعتبره كتابا في النحو، كما نظلم النحو نفسه حينما نفهمه بذلك المعنى الضيق الذي يتعارف عليه الناس في عصرنا، إن هذا الكتاب يضم إلى جانب النحو كل ما له صلة باللغة، ففيه أبحاث في الأصوات وطبيعتها، وأبحاث في الصرف والاشتقاق والمعاني والبديع والأدب والنقد والرواية والسند والقراءة والتجويد وفقه اللغة والعروض"[3].

2- قدرة "سيبويه" على الوصف الدقيق للمسائل وعرضها والتمثيل لها؛فيكاد يخلو من التعريف، فهو يكتفي في الأغلب الأعم بالتمثيل، قال في تعريف الاسم: رجل وفرس وحائط[4]. وقال في الفاعل:" فأما الفاعل الذي لا يتعداه فعله فقولك: ذهب زيد، وجلس عمرو"[5] وكذلك في تعريفه لأبنية الأفعال قوله:" فأما فَعَلَ يَفْعُلُ ومصدره، فقَتَلَ يَقْتُلُ قَتْلاً والاسم قاتِل، وأما فَعَلَ يَفْعِلُ فنحو: ضَرَبَ يَضْرِبُ وهو ضارِب ... وأما فَعِلَ يَفْعَلُ فنحو لَحِسَه يَلْحَسُه فهو لاحِسُ ..."[6] .

فهو كما ترى يركز على المثال التوضيحي الذي يساعد على الفهم والتمثل بعيدا عن الإغراق في تفاصيل كثيرة تؤدي إلى صعوبة الفهم وربما استحالته مثلما هو الشأن بالنسبة للغة القواعد النحوية والصرفية في كثير من الكتب المدرسية المقرّرة ومثل ما يتجلى أحيانا في الخطاب الذي يبلغ به الأستاذ خطابه النحوي إلى المتعلّم.

3- تبيانه لعدد الحروف ومخارجها:

فقد بيّن "عدد الحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مهموسها ومجهورها واختلافهما"[7].

فالحروف **المجهورة** تسعة عشر حرفا هي: الهمزة والألف والعين والغين والقاف والجيم والياء والضاد واللام والنون والراء والفاء والدال والزاي والظاء والذال والباء والميم والواو، وأما **المهموسة** فعشرة أحرف وهي: الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء" [8].

ثم قدّم تعريفا للجهر على أنه :"حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت،

فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلاّ أن النون والميم قد اعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنّة والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلّمت بهما لرأيت ذلك قد أخلّ بهما"(9).

والأمر نفسه لتعريف الحروف **المهموسة** فقد قال :

" فأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس ولو أردت ذلك في المجهور لم تقدر عليه."(10)

فهذان التعريفان للجهر والهمس محيطان ممسكان بهما بدقة، لم تتجاوزهما التعريفات التي جاءت بعدهما إلى عصرنا بما يتوفر عليه من آلات قياس للدراسة والبحث.

ثم إن "سيبويه" عندما يقدم تعريفاته وأوصافه للمفاهيم أو للمادة اللغوية التي يدرسها يدعمها بالدليل والحجة، وذلك ما نقرأه في تعريفه للجهر والهمس كما سبق أن رأينا، فقد قدّم الدليل عن الميم والنون عندما يصيران غنّة بقوله:" والدليل أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلّمت لرأيت ذلك قد أخلّ بهما."(11)، والأمر نفسه بالنسبة للهمس بقوله:

"وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهور لم تقدر عليه"(12).

4- تفريقه بين الحروف الأصول والحروف الفروع:

يجد القارئ لباب الإدغام في كتاب "سيبويه" قد سمى الحروف التي نطق بها أكثر العرب "أصولا" وسمى الحروف الأخرى التي لم يتواتر استعمالها وكانت قليلة نادرة على ألسنة المتكلمين "فروعا" ومن ذلك قوله:"فأصل الحروف العربية تسعة وعشرون حرفا ... وتكون خمسة

وثلاثين حرفا بحروف هن فروع، وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين والألف التي تمال إمالة شديدة والشين التي كالجيم والصاد التي كالزاي وألف التفخيم، ...

وتكون اثنين وأربعين حرفا، بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة والصاد التي كالسين والطاء التي كالتاء والظاء التي كالثاء والباء التي كالفاء، وهذه الحروف التي تتمّتها جيّدها ورديّها أصلها التسعة والعشرون لا تبيّن إلاّ بالمشافهة."[13].

والمتأمل لهذا النص يستشف النظر العلمي العميق لــ"سيبويه" فقد فرّق بين الحروف الأصول والحروف الفروع بكثرة الاستعمال والتواتر على ألسنة المتكلمين الفصحاء، وبقلّته.

وكذلك ما يستحسن في قراءة القرآن والأشعار وبما لا يستحسن وكل ذلك بيانه المشافهة.

وهذا يعني التحري الميداني المباشر والتتبع ومشاهدة العرب وهي تتداول كلامها وتتبادله، ومعرفة سننها في كلامها، وهي نظرة علمية قوامها الاستقراء والملاحظة والتجربة.

5- نظرته للغة من حيث البنية بحسب ما تقتضيه القاعدة النحوية ومن حيث الخطاب بحسب السياقات اللغوية ومقامات التخاطب: ويعد هذا من المسائل التي لا ينتبه إليها إلاّ القليل من الدارسين؛ وإنما الشائع هو أن كتاب "سيبويه" كتاب في الإعراب بالمعنى التقليدي السائد. وقد تصور "سيبويه"

ظواهر التخاطب ووسائله مما نعده في صلب تحليل الخطاب ولسانيات النص في عصرنا[14] .

ثالثا: تحليل نص: مخارج الحروف[15]:

"ولحروف العربية ستة عشر مخرجا: فللحلق منها ثلاثة، فأقصاها مخرجا الهمزة والهاء والألف، ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء، وأدناها مخرجا من الفم: الغين والخاء، ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف، ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف.

ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء، ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد.

ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان وما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا مخرج النون. ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء، ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد، ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء، ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء، ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو"[16].

يعد هذا النص نصا علميا صارما يعرض قضية علمية دقيقة في الدرس الصوتي ويقدم لها أوصافها اللازمة دون زيادة أو حذف بحسب ما تقتضيه اللغة العلمية من دقة موضوعية وتعبير عن موضوع التخصص من ذلك مثلا:

1.البنية التقنية والتنظيمية:

بدأ بهذه العبارة:" ولحروف العربية ستة عشر مخرجا" فهي القضية أو المعلومة الكبرى التي تحتاج إلى تجزئة، إن البنية التقنية **la structure technique** في الخطاب العلمي تعني القابلية والقدرة على تحليل المعلومة الكبرى إلى أجزاء أقل منها قابلة هي بدورها للفهم من أفكار أو أحداث.

وهنا قد قدّم لنا "سيبويه" المعلومة الكبرى وراح يحللها ويجزئها إلى أن أنهاها مركزا على ما يخرج من اللسان وما يخرج من الحلق وما يخرج من الثنايا وما يخرج من الحنك وما يخرج من الشفة وما يخرج من الأضراس وما يخرج من الفم.

مفاهيم المصطلحات: تكوّن المصطلحات ومفاهيمها قاعدة أساسية في نظام الخطاب العلمي وتعد من بين أهم العناصر التي يتم البحث فيها، وفي هذا النص يعد "المخرج" هو **المصطلح المفتاح** فقد تواتر فيه ستة عشرة مرة وتوزع على كامل سياق النص، وتجدر الإشارة هنا إلى إمكانية التفريق بين "المَخْرج" و"المُخرَج".

فأما "المَخرج" عل وزن مَفْعَل اسم المكان، فهو مكان حدوث الصوت داخل الجهاز التصويتي كأن نقول مثلا: مَخْرَج الهمزة والهاء والألف هو أقصى الحلق، ومخرج العين وسط الحلق وهكذا...

وأما إذا قلنا"مُخرج" بالضم فإننا نعني الكيفية التي يخرج بها الحرف من مكانه، أو بتعبير آخر الطاقة أو القدرة التي تحدثه فتخرجه من مستواه الخطي الساكن إلى مستواه التلفظي أو التحدث يرتبط الحرف بالحركة فهي التي تمكن من إخراجه وتجعل المتحدث ينتقل من حرف إلى حرف آخر ومن

كلمة إلى أخرى. وبهذا فإن الفرق بين "المَخْرج" و"المُخرَج" يتجاوز الصيغة الصرفية كونها مجرّدة أو مزيدة "خرج"و"أخرج".

ويرتبط مصطلح "المُخرج" باعتباره مصطلحا أساسيا في هذا النص بكلمات أخرى وهي: اللسان، هذه الكلمة التي تواترت في النص عشر مرات، والثنايا التي تواترت خمس مرات والحنك أربع مرات والحلق مرتين والشفة مرتين والأضراس مرة واحدة والفم مرة واحدة، ويبلغ مجموع التواتر لهذه الكلمات مع تواتر المصطلح الأساسي الذي هو "المخرج" واحدة وأربعين مرة من المجموع العام للنص المقدر بحوالي واحدة وتسعين كلمة.

يمكن أن نقول بأن هذا التواتر المهم لهذه الكلمات يجعل منها مفاصل أساسية في بنية النص حيث بيّنت الدقة العلمية، لأنها انحصرت في أبنيتها المعجمية ولم تتجاوزها وبذلك انحصر معناها في مدلولها العلمي فقط.

وبيّنت من ناحية أخرى أجزاء جهاز التصويت ومواضع خروج الصوت وإصداره من حيزه اللازم في جهاز التصويت. والحيز هو الموضع الذي تشترك فيه مجموعة من الحروف ويشمل مجموعة من المخارج كما هو الشأن مثلا لحيز الحلق الذي له ثلاثة مخارج تخرج منها مجموعة من الحروف، فكما ورد في النص:" ، فأقصاها مخرجا الهمزة والهاء والألف، ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء، وأدناها مخرجا من الفم: الغين والخاء..."

وهكذا كأننا أمام عالم تشريح بيولوجي من عصرنا هذا، فلا يتعدى طول الحلق سنتيمترات محددة ومع ذلك قسمه "سيبويه" بدقة متناهية إلى أقصى الحلق ووسطه وأدناه. بل وأكثر من ذلك نلاحظ تقنية الترتيب والتحليل بتفصيل بالغ الدقة في قوله:" ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى

مخرج القاف، ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف. ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء..."

إن تحديد "سيبويه" لهذه المواقع بهذه الدّقة في الأوصاف لا تحققه إلاّ التجربة والملاحظة العلمية والمعاينة الحسية والخبرة العميقة بلسان العرب ومعرفة أسراره، وفوق كل هذا حدة الذهن وقوّة الخاطر.

نلاحظ مثلا كلمة "قليلا"قد زادت الوصف تحديدا وتعيينا، ونلاحظ أيضا وصفا وعرضا يلمح "سيبويه" من خلاله إلى التبويب والتفصيل والترتيب في قوله:" ومما بين طرف اللسان و**أصول** الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء، ومما بين طرف اللسان و**فويق** الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد، ومما بين طرف اللسان و**أطراف** الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء..." فتوجد ثلاثة أوصاف وهي: **أصول** الثنايا و**فويق** الثنايا و**أطراف** الثنايا.

ويزيد المسألة عمقا ودقة متناهية تناسب كثيرا ما تبيّنه المخابر الصوتية في عصرنا من رسم توضيحي للجهاز التصويتي وأعضائه المختلفة وأسباب حدوث الحروف ومواضعها، فيقول:" ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان وما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا مخرج النون"، إنها فعلا لغة علمية واصفة متخصصة دقيقة مرتبطة ارتباطا وثيقا بموضوعها ومجال تخصصها، تجعلنا تعترف لــ"سيبويه" وتميزه من العلماء العرب القدامى بالفضل والسبق في البحث الصوتي.

2-البنية اللسانية:وتعني مدى قدرة الكاتب على التحكم في اللغة بفاعلية واختصاص، إذ تعكس الدقة اللغوية قيمة الخطاب العلمي وما يتميّز به من دقّة في ملاحظاته، وأوصافه وحساباته وتقديراته العلمية.

والقارئ لهذا النص يلاحظ أنه عبارة عن متوالية جملية اسمية لا أثر للفعل فيها إلاّ قليلا نادرا لم يتجاوز فعلا واحدا تكرّر ثلاث مرات وهو الفعل "يلي" الذي لا يحدد حدثا بقدر ما يحدد مكانا، وبذلك جرّد من حركية الفعل؛ فهو يعني تحديد المكان بالدرجة الأولى والترتيب بالدرجة الثانية، إنه فعل بدلالة الاسم إن جاز القول.

وهذا ما أعطى للغة النص سكونية الوصف المكاني ودقة لغته وتحديده، مما يؤكد سيادة الوصف والتقرير وغياب التأويل.

وإذا كان النص -كما قلنا- متوالية اسمية فإنه حافل بالأخبار أيضا، لأن الغرض الأساسي هو إخبار السامع أو القارئ بمخارج حروف العربية وعددها.وقد أدت الروابط دورا بالغ الأهمية في بناء نظام النص وترابطه وتحقيق إفادته بالنسبة للمتلقي. من ذلك تواتر حرف الواو تسعا وثلاثين مرة و"مِنْ"خمس عشرة مرة فلها وظيفة أساسية في لحمة النص وسداه.

رابعا: الخلاصة:

إن هذه التعريفات الإجرائية الدقيقة وهذه التحديدات الصارمة لمخارج الحروف وغيرها مما يتعلّق بالدرس الصوتي عند "سيبويه" تقدم فائدة كبيرة في تعليم العربية واكتساب آلياتها، ولا بد من الرجوع إليه ومحاولة استثماره وبخاصة عند الطلبة الجامعيين، ونرى أن باب الإدغام في الكتاب من الضروري أن يقرر على الطلبة ليقرأوه ويستأنسوا بلغة "سيبويه" ويفهموها

ويتمثلوها وأن يعينهم الأساتذة على ذلك، **ويتخذوا من كتاب "سيويه" منطلقا للنظر الابستيمولوجي** في الدرس الصوتي بخاصة والدرس اللغوي بعامة، وستكون الفائدة كبيرة إن شاء الله.

الهوامــش و المراجــع

1-ينظر: G. vinger,lire du texte au sens ,p98.
2-انظر:بشير إبرير ، الذخيرة اللغوية ، مشروع حضاري، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الرابع، السنة الثانية ، ديسمبر 2006، ص، 42.
3- د/حسن عون، أول كتاب في نحو العربية، مجلة كلية الآداب، الاسكندرية، مصر، مجلد، 1957/11،ص،.39
4- سيبويه، الكتاب، ج/1، تحقبق محمد عبد السلام هارون، عالم الكتب، ط/3، 1982، ص،.1
5- المصدر نفسه، ج/1/.33
6- المصدر نفسه، ج/4/.5
7- المصدر نفسه، ج/4/.431
8- المصدر نفسه، ج/4/.434
9- المصدر نفسه، ج/4/.434
10- المصدر نفسه، ج/4/.434
11- المصدر نفسه، ج/4/.434
12- المصدر نفسه، ج/4/.434
13- المصدر نفسه، ج/4/.432
14-انظر للمزيد من التفاصيل: بشير إبرير، دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي، الفصل الخاص بظواهر التخاطب واكتساب المشافهة عند

سيويه، ص،34 وما بعدها.

15- نشير إلى أن الطبعة الخاصة بالكتاب بتحقيق محمد عبد السلام هارون، عالم الكتب "ط2" قد سقط منها مخرج اللام، وهذا لا يعني أن سيبويه هو الذي أخطأ ولا ينقص أيضا من قدر الأستاذ محمد عبد السلام هارون شيخ المحققين الذين عرفوا التراث اللغوي العربي أيما معرفة، وإنما النسيان يعود إلى الطبع.

16- سيبويه، الكتاب، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ج/431/4.